اياس محسن حسن*

صدام حضارات أم ضربة معلّم؟

قضية «الرسوم المسيئة» والحس الجمعي المدمر

■ يحكي السوريون نكتة مفادها ان احد الشيوخ كان متوجها ذات صباح من قريته الى قرية اخرى لتلبية دعوة احد تلاميذه القدماء الى الغداء، واثناء عبوره بجانب حقل في قرية اهلها من طائفة اخرى، شاهد فلاحين يجرون ثورا نفق اثناء الفلاحة. لمح الفلاحون الشيخ وعرفوا اختلاف طائفته من مظهره، فما كان منهم الا ان اسرعوا اليه وربطوه مكان الثور وفلحوا بواسطته الحقل حتى العصر. حين وصل الشيخ مساء الى بيت مضيفه، كان ممزق الثياب، مغبر الوجه، منهك القوى ومسلوخ الظهر، حكى الشيخ ما جرى له، فما كان من مضيفه الا ان هب واقفا والغضب يملؤه وصرخ: هاتوا البارودة! سوى ان الشيخ شده من يده قائلا: لا تقلق يا ولدي، الجماعة لم يقللوا من ادبهم. كانوا اذا ارادوني ان اذهب يمينا يقولون: الى اليمين، يا شيخنا، واذا ارادوا ان اذهب الى اليسار يقولون: من فضلك الى اليسار، يا شيخنا، يعني المهم ان الكرامة ظلت محفوظة.

نهاية الحكاية ان الرجل جلس الى جانب شيخه مطلقا زفرة ارتياح.

لا تزال قضية الكاريكاتيرات التي تتناول النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) تتورم وتأخذ ابعادا لم يكن لأحد ان يتصورها، لاسباب عدة ابسطها ان اغلب الرسوم تبدو، بالفعل، اسخف من ان يعلق عليها، وان مسألة تناول الاسلام بصورة «تجرح شعور المسلمين» مسألة قديمة وشبه يوميه في الصحف والمجلات والكتب والافلام والدراسات، ومؤخرا في قوانين بعض الدول الاوروبية (الشيء الذي لسنا بصدد التعليق عليه هنا) سوى اننا لم نشاهد، ولا مرة، السفراء العرب يحزمون حقائبهم غاضبين عائدين الى بلادهم، او وزراء الخارجية العرب يتفقون بالاجماع على «خطة دفاعية»، ولم نر مرة اقطاب الافتاء في العالم الاسلامي تجتمع على مقاطعة دول لم تتوقف عن «جرح شعور المسلمين»، بقتلهم ـ مثلا ـ او سلب حرياتهم واذلالهم على حواجز التفتيش او في السجون، او هدم بيوتهم او حرمان اطفالهم من التعليم والصحة او تجويعهم او تشريدهم.

فورة مدهشة للانتقام عام 2006 من رسوم تتناول رجلا اصبح رمزا من قبل ان يرحل عن العالم عام 632، ولم تتمكن اي قوة طوال اكثر من اربعة عشر قرنا على منع المسلمين من المناداة باسمه على الملأ في المآذن خمس مرات في اليوم، دون عد الصلوات وعدد مرات ذكره في الكتب وعدد الاشخاص الذين سموا باسمه تباركا طوال هذه القرون. فجأة تحولت هذه الرسوم الهشة بالحاح اعلامي فريد (عربي اولا، وربما كان من المفيد هنا ان يطرح السؤال بجدية عن دور هذا الاعلام) الى قضية العرب والمسلمين الاولى، وتجاوب الشارعان العربي والاسلامي معها بصورة مؤلمة توحي بأن هذين الشارعين مفلسان الى حد لم يبق لديهما ما يدافعان عنه وما يعتزان به سوى هذا «الشعور» الذي يجرحه الهواء حين يتنفسه صحافي غربي غير معروف خارج مدينته.

والجدل حول حرمة المعتقدات وحرية الصحافة وصدام الحضارات (الاسئلة التي حرصت وسائل الاعلام على حصر السجال ضمنها) يستدعي وقفة ولو قصيرة امام المقولات التي استنهضها عن ازدواجية المعايير في الغرب وكيفية التصدي لها، وعن الانتصارات التي حققتها الهبة الشعبية المباركة وحملة المقاطعة الاقتصادية.

الردود العربية على مقولة حرية الصحافة في الغرب بدت بالجمل مخزية. والمعادلة الشهيرة التي يلجأ اليها بصورة تلقائية، اجترارية احيانا، الحريصون على حرمة المعتقد هي التالية: تسمح الدول الغربية لنفسها بانتقاد المسلمين وبالتجريح بهم، وتعامل ردات فعلهم الاحتجاجية كاعتداء على حرية التعبير، بينما يغرم (وقد يسجن) من يسمح لنفسه بالتشكيك علنا بالمحرقة. واذا كان احد طرفي المعادلة صحيحا تماما (نعني ملاحقة من تساءل عن طبيعة المحرقة وحجمها)، فان الاخذ بمجملها يدعو، حرفيا، الى اليأس من مستقبل العالم.

ذلك ان الدفاع اولا عن مبدأ الحرية وثانيا عن التاريخ يفرض على اي مثقف رفض حالة الحصار الفكري التي تصادر حقوق التأمل والبحث والاستنتاج والشك والخطأ، ايا كان مسوغها وايا كان مصدرها، ولا استشهد الا بموقف نعوم تشومسكي ازاء قضية برونو غولنيش، الاستاذ اليميني المتطرف في جامعة ليون، حين ندد تشومسكي بسلطة قمعية جرت الرجل الى المحكمة لمعاقبته على افكاره، مصادرة، فيما تصادر من حقوق، حق المثقفين في نقد مقولاته بشكل حر او في دعوته الى مناظرة. ولكن حين يصبح حل المعادلة الوحيد والبديهي للجميع هو التعاطف مع من يسميهم الاعلام بالمسلمين دون ان نعرف عن من يتحدث بالضبط من المسلمين، باعطائهم حقا يمسي في هذا المنطق مشروعا، بممارسة ما تمارسه المؤسسة الصهيونية والليبرالية الجديدة على العالم من ترهيب وقتل للحريات، محولا النضال لازالة زنزانة فكرية الى قتال لاضافة زنزانة اخرى اسوة بالاولى، فذلك هو ما يدعو لليأس ويبشر، في افضل حالاته، بان ما قد يحصل عليه من ينصبون انفسهم للكلام باسم المسلمين، لن يكون ابدا حرية هؤلاء واستقلالهم عن قوى الهيمنة في العالم، بل سيكون ببساطة حصة «ذوي الامر» من التسلط والترهيب ضمن منظومة الهيمنة القبيحة نفسها.

وما يبعث على الاحباط اكثر من غيره، هو ان الكثير من الجماعات الاسلاموية المنفية في الغرب، والتي تعد مواطنيها ليل نهار بتحقيق الديمقراطية فور عودتها الى الحياة السياسية في بلادها، كانت اول من انضم الى دعوات سن قوانين في اوروبا تعاقب على «الاساءة لليهود»، واعدة ايانا ضمنيا بملاحقة الباحثين في التاريخ العربي والاسلامي وتاريخ الاديان وكليات الفلسفة في الجامعات الاوروبية تيمنا بالملاحقات التعسفية ضد الباحثين في تاريخ الحرب العالمية الثانية والذين لا يتفقون مع النسخة الرسمية من هذا التاريخ والنتائج التي افرزتها.

اعتقد ان من يدافع عن حق اي باحث او مفكر في قراءة ما يشكك كليا او جزئيا بالتاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية ـ بغض النظر عن خطئه او صوابه ـ وفي اختيار ان يوافق عليه، ان يرفضه ويرد عليه، او ان يقلب الصفحة مبتسما، فالاحرى به ان يدافع عن حق القارئ او المفكر ابن الثقافة الاسلامية في ان يقع على رسم احد مقاتلي طالبان (يزعم صاحبه انه النبي محمد) معصوب العينين مع خنجر علي بابا في يده، وفي ان يقلب الصفحة باحثا عما قد يثير اهتمامه اكثر.

واما عن نظرية عدم وجود رسوم كاريكاتيرية ليسوع او لمريم العذراء في اوروبا، فاني ادعو اصحاب هذه المقولة المتسرعة للاطلاع، تمثيلا لا حصرا، على بعض رسوم الفرنسي كلود سير C. Serre او الاسباني فرناندو بويغ ـ روزادو F. Puig - Rosado.

السؤال الثاني عن نجاح المقاطعة وجدوى الثورة الشعبية، هو الاعقد، وربما الاخطر. وان قراءة لاحداث موازية لتسلسل تورم ازمة الرسوم المسيئة (كما تحب تسميتها احدى الفضائيات الموكلة حصريا بتصريحات بن لادن الاسعافية للادارة الامريكية) قد تكون ذات جدوى فيما يخص مسألة المقاطعة تحديدا.

ربما كان من المفيد لمن يتأمل في هذه الأزمة ان يبدأ قراءته ليس من ايلول/سبتمبر 2005، حين ظهرت الرسوم في الصحيفة الدنماركية التي كفل لها السفراء العرب وائمة الجوامع شهرة عالمية لم تكن تحلم بها، من حيث ان هذه الرسوم عند صدورها الاول لم تثر من الضجة، على الرغم من احتقان العالم الاسلامي، الا شجبا هنا واسفا هناك، قبل ان تتلاشى القضية كما تلاشى غيرها. اعتقد ان من المفيد تذكر ما جرى في النرويج، في الاسابيع السابقة للأزمة، وتحديدا في كانون الاول/ديسمبر 2005، حين اعلنت محافظة سور ـ ترونديلاغ النرويجية عن تبني مقاطعة دولة اسرائيل رسميا على اراضيها.

وفي مطلع 2006، اطلقت وزيرة الاقتصاد النرويجية كريستين هالفرشن دعوة لمقاطعة اسرائيل على مستوى البلاد، واعلنت عن حملة تضامن مع الشعب الفلسطيني كانت مقررة في نهاية كانون الثاني/يناير، ينظمها الحزب الاشتراكي (الذي تنتمي له الوزيرة المعنية والذي يتبنى منذ ايار/مايو 2005 سياسة مقاطعة اسرائيل حتى توقف انتهاكاتها لحقوق الانسان)، بالتعاون مع مجموعة من الافراد والمؤسسات الداعمة لحقوق الشعب الفلسطيني، تهدف، بحسب تصريحات الوزيرة، الى «اظهار اسرائيل على حقيقتها» والتعريف على مستوى واسع بمعاناة الشعب الفلسطيني في ظل الانتهاكات الاسرائيلية اليومية. ربما كانت هذه المبادرة من اهم المبادرات الحديثة في الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني، نظرا للطابع الرسمي الذي كانت تتجه نحوه ولطرحها مبدأ ان تتبنى الحكومات مهمة اطلاع شعوبها على الواقع اللاعقلاني الذي يعيشه هذا الشعب.

في الايام التالية لدعوة هالفرشن وبعد استجابة واسعة من قبل اطياف اليسار النرويجي كما من المؤسسات المستقلة، اخذ الحدث في الاعلام الغربي صدى واسعا وحصل، على ما بدا، جدل عنيف وراء الكواليس رافقه، بعد تهديدات امريكية عنيفة اللهجة على لسان وزيرة الخارجية، اعتذار وزير خارجية النرويج من الحكومة الاسرائيلية بدعوى الحياد ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي. ونجحت الحملة الاعلامية على الوزيرة ومؤيديها، بانتزاع اعتذار تلك الاخيرة عن التصريحات، في 6 كانون الثاني/يناير، مؤكدة انها تقدم اعتذارها كعضو في الحكومة الائتلافية حرصا على وحدة وتماسك حكومة بلادها التي تعارض المقاطعة، ولا تقدمه باسمها الشخصي ولا باسم حزبها حين اكدت انها، كما الحزب، يواصلان المقاطعة وماضيان في التحضير لحملة التضامن المقررة.

اعتذار الوزيرة بعد حملة اعلامية قاسية ضدها وبعد حملة توبيخ دولية لحكومة بلادها، لم توقف حملة المقاطعة خارج الحكومة، كما لم توقف حملة الردود عليها. ولم تكد تمضي اربعة ايام على استدراك الحكومة لموقفها، حتى ظهرت، من حيث لا يدري احد، صحيفة «مغازينت» النرويجية المغمورة بالرسوم اياها، مع عبارات هجومية مستفزة تتناول من سمتهم بالمسلمين وموقفهم من الحريات.

القبول بالصدفة المحضة التي جمعت هذين الحدثين، نعني تبني مقاطعة اسرائيل وظهور الرسوم في النرويج ومن ثم الحماس منقطع النظير للحكومات العربية لرد الاعتبار ومحاسبة الفاعلين، لا تمنع من متابعة تداعياتهما معا، منذ تلك اللحظة. فما كانت الحكومات العربية والجماهير الغفيرة قد طالبت به، وهو الاعتذار، حصل بالفعل: سارعت حكومة النرويج بالاعتذار محاولة استرداد زمام المبادرة التي فقدتها مرتين: مرة حين حملها انصار حقوق الانسان عبء الترويج لقضية جلبت لها تهديدات الخارجية الامريكية، ومرة حين ورطتها صحيفة تافهة بغضب اكثر من مليار شخص في العالم. الصحيفة الدنماركية، بعد الخسائر المالية الكبيرة لبلادها نتيجة المقاطعة الخليجية لبضائعها، اعتذرت على لسان رئيس تحريرها وابدت اسفها لنشر اهانة «لم تكن مقصودة». ربما كان على الصدفة ان تنتهي هنا.

لكن ما جرى هو ان الشوب (الشعوب فقط) وجدت (جميعها معا) ان الاعتذار «غامض»، واكدت على ان حقها لن يسترد الا بمعاقبة المسؤولين عن الرسوم وعن نشرها لئلا تتكرر هذه التطاولات، ثم اضافت، بعد ايام، مطالبتها بالقوانين الجزائية سيئة الذكر. التظاهرات ازدادت، وامتدت دعوات مقاطعة الدنمارك والنرويج لتشمل الاتحاد الاوروبي برمته.

وبعد اقل من اسبوع من اعتذار الصحيفة الدنماركية، اختفى مصطلح «الاعتذار الغامض» من جميع وسائل الاعلام العربي، وعادت الى الواجهة عناوين من نوع «الدنمارك ترفض الاعتذار» و«المسلمون يقاطعون النرويج لاساءتها للرسول الكريم»، ناهيك عن الجرد اليومي لاسماء الصحف التي اعادت نشر الرسوم في اوروبا، واما صورة المسلح الفلسطيني، ذي الوجه الملثم امام مقر بعثة الاتحاد الاوروبي في غزة، فظلت، منذ بداية الترويج الاعلامي للازمة، الاثيرة لدى تلفزيونات الارض والفضائيات العربية اولها، دون ان تحتاج لتعليق، ناهيك عن البند اليومي الذي افرد لنشاطات الاحتجاج في قطاع غزة من حرق الاعلام الى الخطف الى دعوات الانتقام والقتل. وانتهى شهر كانون الثاني (يناير) بينما كان الرجل المسلح لا يزال مرابطا على باب المفوضية الاوروبية، في جميع الصحف والتلفزيونات، يعد ويتوعد.

شخصيا، لم اتمكن من العثور على اي خبر عن حملة التضامن مع الشعب الفلسطيني والترويج لمقاطعة اسرائيل التي كان من المفترض ان تنطلق في اواخر كانون الثاني، والتي كنت انتظرها. كل ما عثرت عليه بهذا الصدد، هو ان محافظة سور ـ ترونديلاغ تتجه مكرهة تحت الضغط السياسي والقانوني وتراجع الدعم الشعبي الى مراجعة قرارها بمقاطعة اسرائيل، دون ان يكون لهذا الخبر اية اهمية في موازاة اخبار اخرى كحرق سفارة الدانمارك في دمشق، مثلا، واقتحام فلسطينيين مقر الاتحاد الاوروبي في 4 شباط (فبراير) 2006.

وراء الانتشاء السريع بصحوة عربية اسلامية تقطع الطريق على من تسول له نفسه بالتطاول على هذا الرمز او ذاك، فان ردة الفعل المتضخمة التي رعتها الحكومات والاعلام العربيان و«تفهمت اسبابها» الخارجية الامريكية، تحولت الى رسالة بسيطة وواضحة لناخبي النرويج، وهي ان الرجل الذي تحاربه اسرائيل والذي تصوتون لصالح دعم قضيته، لا يزال مرابطا على باب مفوضيتكم، يحرق علمكم ويعلن مقاطعته لكم وان سلاحه لا يهدد اسرائيل، بل يهددكم اولا.

وجاءت الصدفة البارعة المدهشة لتلقن الدنمارك والنرويج، ومعهما الاتحاد الاوروبي، درسين مهمين: الاول مفاده ان الملايين المسلمة التي لا يحق لها البتة مقاطعة الولايات المتحدة بكفالة حكوماتها، مسموح لها تماما بمقاطعة الاتحاد الاوروبي وطرده من اسواقها بعد ان تم اقصاؤه عن مصادر النفط في المنطقة، والثاني، والاهم، مفاده ان في الدول المرفهة المزعجة التي لا تزال فيها شريحة واسعة ترى ان حقوق الانسان لا تنقل الى الشعوب في حقائب الجنود وعلى متن طائرات الـB52، من ستسول له نفسه بالدعوة للمقاطعة الاقتصادية كوسيلة ضغط على الدول التي تمارس الاحتلال والقتل، سيرد له الصاع مليارا وثلاثمئة مليون صاع، او اكثر قليلا.

والكرامة محفوظة.

* كاتب من سورية

د. المتوكل طه*

احتجاجاً على الرسومات المسيئة للرسول الأعظم (ص)

بطرس الناسك مرة أخرى

■ ها نحن نعود إلى الكاريكاتير مرة أخرى، فقبل ألف عام تقريباً حمل الناسك بطرس رسماً يظهر فيه «التركي الفظ وهو يضرب المسيح»، كان الناسك هذا، القصير والغليظ والمسطح، يلوب في المدن والقرى يثير الناس ويستفز مشاعرهم، ويحرضهم لتخليص قبر المسيح من «الاتراك الملاحدة» أو من «المحمديين الوثنيين». ونجح ذلك الراهب في أن يشعل حرباً ضروساً دامت حوالي 300 سنة، بين عالمين وعقيدتين وثقافتين، كانت حرباً طويلة ومريرة وكئيبة. لم يستطع الغرب فيها أن يلغي الشرق أو يمحوه، ولم يستطع الشرق أن يلغي الغرب أو يدمره . كانت حرباً كافرية خاطئة وظالمة لم يستطع قداسة البابا ان يعتذر عنها عندما زار بلادنا قبل سنوات. الآن، وبعد الف عام، يجب الاعتراف ان محرك هذه الحرب كان دينياً إلى حد كبير، ومن يقرأ أدبيات تلك الحرب من منظور غربي سيكتشف سريعاً أن ملوك الغرب وباروناته وأمراءه كانوا يأتون بلادنا «للتطهر» و«للنذور» و«خدمة المسيح».

يجب أن لا نخجل من الحقائق، ويجب أن لا نجملّ الأشياء لأن «الموضة الثقافية» تستدعي ذلك منّا!

ها نحن نعود إلى رسوم أخرى وبطرس آخر.

الرسوم الاثنا عشر التي نشرتها صحيفة دنماركية تصور هي الأخرى سيّد الأكوان والجهات كلّها، سيد الأسياد وأكرم الخلق، نبينا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام، وكأنه مصدر الشرور والآفات والارهاب، تماماً كما حدث قبل ألف عام تقريباً. المسلم هو البادىء بالشر، والمسلم هو الذي يمارس الظلم. وإذا كان بطرس قد قضى بضعة أشهر وهو يوطف في انحاء أوروبا، فإن الرسوم الدنماركية انتشرت في أرجاء الأرض في أقل من أسبوع واحد من خلال معظم الوسائل الغربية التي هبّت لنجدة الدنمارك. تلك البلاد الباردة التي يحب أهلها تربية الخنازير وزراعة البطاطا، ويريدوننا أن نحبّ زبدة لورباك والشوكولا الدسمة! وإذا كانت الحروب القديمة قد بدأت برسوم استفزازية، فإن الصور والرسوم الحالية هي ذروة ما يجري في وقتنا الحاضر. وإذا كان شعار الحروب القديمة هو «الله أراد هذه الحرب»، فإن شعار ما يجري حالياًهو «انتظار لمعركة هارمجدون». الغرب يتوهم المعارك ويتوهم الأهداف وعلى الشرق أن يدفع ثمن هذه الأوهام ـ استعمل هنا كلمة الشرق بمعنى الشرق العربي الإسلامي وليس كما قصده محمد أركون مثلاً ـ هذه الرسوم التي جاءت لترصد «مدى حرية التعبير وقدرة تأثيرها» كما برر ذلك راسموها وناشروها والمدافعون عنها، لم تأت عفواً ولا صدفة ولا عبثاً.

لقد جاءت تتويجاً وتأجيجاً لما يجري على الساحة العربية الإسلامية بلغة أخرى، أبسط وأكثر شعبوية، لقد جاءت لترصد ردة الفعل على إهانة مقصودة ومباشرة وفي الصميم.

فماذا بعد نهب الثروات العربية والإسلامية، وماذا بعد تطويع الحكومات وتدجين الشعوب؟!

وماذا بعد الاحتلال المباشر؟! وماذا بعد الاطاحة بالانظمة «المارقة والعاصية»

والتحالف مع قوى متخارجة ومتغربنة!! وماذا بعد فرض اسرائيل بالقوة في المنطقة؟! وماذا بعد تغيير المناهج وتعديل البرامج واطلاق فضائيات «الوحوحة» و«العري»!!

وماذا بعد تغيير شكل الأسرة ومراكز القوة والسلطة فيها!! وماذا بعد التشكيك في الثوابت والمسلمات من خلال مناهج البحث العلمي واخضاع النصوص للهوى العقلي؟!

وماذا بعد الشرق الأوسط الكبير واتفاقيات التجارة الحرة والتبادل الثقافي والتطبيع؟!

لم يبق إلا أن يُساء إلى شخص الرسول العظيم عيناً وقصداً وجاهيا، والدخول إلى ذلك من باب حرية التعبير ومدى قدرتها على التأثير. أي، بكلمات أبسط، فإن أصحاب القرار في ذلك أرادوا من وراء نشر تلك الصور معرفة وقياس تصرف الشعوب العربية والمسلمة على هذه الاهانة بعد كل الاهانات التي وجهت إليهم. بكلمات أكثر صراحة، ماذا سيفعل العرب والمسلمون في حالة إهانة آخر رموزهم المقدسة، وانتهاك آخر قلاعهم الثقافية والروحية، فالمعارك الأشد هي المعارك التي تدور حول المعابد عادة. سيقول قائل بليغ مصقول إن هذا الكلام يفترض مؤامرة وراء كل ذلك!

وأقول لهذا البليغ المصقول أنْ يضم الأحداث إلى بعضها البعض ليرى بأم عينه جبهة عريضة تتشكل، قوامها الحكومات التي هددت والصحف التي نشرت والمفكرون الذين دافعوا والهيئات التي دعمت.

المسألة ليست مسألة معرفة أو عدم معرفة بالإسلام.

والمسألة ليست مسألة حرية تعبير، فنحن نعرف كذب ونفاق ودجل الديمقراطية الغربية في التعامل مع الشعوب الضعيفة وخاصة أهل فلسطين الذين يطلب منهم الاعتراف بإسرائيل وعدم مقاومتها والتعايش مع احتلال عنصري بغيض لا مثيل له.

ليس هناك من مثال أكثر ظلماً للحقيقة من ذلك القرار الذي اتخذه مجلس الأمن قبل فترة بعدم التشكيك بالمحرقة اليهودية كلياً أو جزئياً، بمعنى آخر، ان مجلس الأمن تحول إلى إله يعرف كل الحقائق وهو ـ للمرة الأولى في تاريخه ـ يفرض حقيقة تاريخية على البشر يعاقَب مَنْ ينكرها، إن الأديان السماوية الثلاثة لم تفعل ذلك، ولكن مجلس الأمن فعلها!

هذا القرار نفاق كبير، لأن التاريخ ووقائعه مثار جدل ونقاش، التاريخ مثله مثل كل العلوم، قابل للطعن، ولكن مجلس الأمن كان فوق العلم وفوق البشر، ومنع بذلك ليس حرية التعبير فقط وإنما حرية التفكير أيضا، وهذا لم يحدث ابداً. أما إذا تعلّق الأمر بأقدس شخصية اسلامية وتخص عشرات الملايين من البشر فإن ذلك يوضع تحت لافتة حرية التعبير.

إذن المسألة أكبر وأعمق من حرية التعبير. وحرية التعبير هذه أفرزت حركة حماس في فلسطين، ولكن العالم الغربي الذي يقدّس هذه الحرية لم يعترف بنتائجها، وها هو يرغب بمعاقبة كل الشعب الفلسطيني من خلال تجفيف المساعدات والمعونات، ولا يخفى على طفل أن ذلك كلّه من أجل اسرائيل وهي القوة المحتلة والمتعصبة والمتطرفة والتي تشارك في حكوماتها أحزاب دينية غاية في الغلو والعنصرية وهي دولة نووية، ولكن الغرب يغمض عينيه عن كل ذلك، ثم لا يجد سوانا، نحن الشعب الأضعف الذي لا يملك غواصات ولا دبابات ولا جرافات ليطلب منا أن نحمي الاحتلال والاستيطان. وهذا أمر لم يحدث من قبل!

لم يعد هناك أكثر وضوحاً من هذا الوضوح.

المستشارة الألمانية انجيلا ميركل مثلا، تقف في حشد من الأوروبيين والامريكيين قبل عدة أيام لتكيل الاتهامات للشعب الفلسطيني وكأنه هو الذي يمارس الظلم والشر والقتل على الشعب الاسرائيلي، ومن يستمع اليها يعتقد جازماً أننا نحن القوة العظمى الشريرة التي تطارد الاسرائيلي في طرقاته وتضيّق عليه رزقه ومصادره وماءه وهواءه.

هناك حلقات متعددة ولكنها ذات مركز واحد. هذا المركز هو هذه المنطقة وشعوبها.

ولا أشير هنا إلى نفط هذه البلاد أو ثرواتها الأخرى، ولا أشير إلى موقعها الاستراتيجي، ولكني أشير إلى ما كان يفكر به ذلك الراهب الأصلع القصير الغليظ والمسطّح وهو يوطف قرى أوروبا ومدنها في الثلج والبرد والمطر، من أجل أن يستفزّ شعوباً لمحاربة «الأتراك الكفار».

وبالمناسبة، فإن أهل الدنمارك الذين رفض 67 % منهم الاعتذار إلينا، جاءوا إلى بلادنا قبل ألف سنة على متن سفينتين كبيرتين كان على احداهما الملك نفسه، وقد أطلق عليهم مؤرّخونا الأفاضل القدماء «الدنمرقة». أما أنا شخصياً فإني لا أطلب الاعتذار من «الدنمرقة» الجدد، ولا أطلب الاعتذار من أحد، إنني أنظر إلى الأمام، لأن في «الوراء» الجواب.

* شاعر من فلسطين

حكومة «بنما» التي ترفع علم مصر.. كيف نحاكمها؟

محمد عبد الواحد*

■ يبدو ان السيدة حكومة «التنظيف» الجاف التي تحكم مصر، قد نسيت في بيانها الذي القته منذ ايام، في مجلس الشعب، ان تشير الى ان السيد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء يتابعون حادث غرق العبارة «السلام 98»، وان التحقيقات جارية لمعرفة المواطن «البانمي» الذي تسبب في غرق العبارة، وهذا السهو تداركه تلفزيوننا «الاهبل» فور ان تجرأت جثث ضحايا العبارة ووصلت الى المياه الاقليمية المصرية، فسرعة الاعلان عن برقيات العزاء التي تلقاها الرئيس فاقت اي انباء عن تلك الجثث، ولماذا لم تتمتع باي حس وطني إذ أنها سمحت لنفسها بالغرق في يوم مباراة المنتخب الوطني مع الكونغو، فضلا عن انها جثث مزعجة، فأمامها الاسبوع بطوله ولم تختر سوى يوم اجازة ـ الجمعة ـ لتزعج الاستاذ «نظيف» وهو يحاول ـ يا حبة عيني ـ ان يستريح لساعات قليلة، ان الرجل يقطع يوميا رحلة طويلة من مملكة «غارديناليا» التي يسكنها على الحدود بين مصر ومدينة 6 اكتوبر، وهي رحلة طويلة، ونظرا الى ان شركات الطيران في المملكة معطلة في يوم الجمعة، فلم يتمكن سيادته من الحصول على تذكرة سفر الى الشقيقة مصر ليواسيها في ضحايا العبارة المزعجة، لكن سيادته ـ كما اعلنت السرايا الصفرا في ماسبيرو ـ يتابع الحادث اولا بأول، وعلى مواطني «بنما» الذين غرقت بهم العبارة الانتظار داخل الشعاب المرجانية في اعماق البحر الاحمر والاستمتاع بمشاهدتها مجانا، مع الحذر من المساس بها، حتى لا تزعل منهم «طنط» البيئة، وان كان سيادته ينصحهم بالموت شهداء، مع ضرورة الدعاء لحكومة «بنما» التي تحكم مصر، لانها منحتهم تأشيرة الى الجنة بسعر تأشيرة السفر الى السعودية.

ان الحديث عن الحكومة والشركات متعددة الجنسيات التي تحكم مصر وتقتل مواطنيها، اصبح امرا عاديا، فأنت ترى وزراء متعددي الجنسيات في حكومتنا، واحدهم سمعت بأذني قدر استعطافه ليقبل ركوب طائرته ويأتي الى بلده الثاني مصر، مع وعد بأن يستبدل ركوب شعبها بطائرته، وان لم تناسبه المطية الجديدة فالحكومة مستعدة لتوفير مطايا وزارات اخرى ليختار سيادته المناسب منها ليركبه، وكان ذلك اثناء تشكيل حكومة «نظيف وان»، واستمر سيادة المواطن الضيف وزيرا في حكومة « نظيفواندي ـ تو».

اذن يبدو الحديث عن ان العبارة المنكوبة، ترفع علم «بنما» نوعا من المسخرة السائدة عن الحد، وربما كان الامر مقدمة، للحديث عن الوزراء الذين يرفعون اعلام دول اجنبية ويحكمون مصر، عند المطالبة بمحاسبتهم.

ولعل تكرار حديث قناة «السرايا الصفرا» من ماسبيرو، عن علم بنما، جعلني اسارع الان بتوجيه الشكر الى مصر رئيسا وحكومة وشعبا، على سرعة استجابتها لإنقاذ ونقل جثث ضحايا العبارة البنمية التي غرقت وعليها عدد من المواطنين المصريين الاجانب.

ان البجاحة التي يتصرف بها النظام في مصر، من دون ادنى شعور بالمسؤولية، امر يشير الى خطورة هذا النظام على مصر، نظرا لأنها بجاحة الجهل والضعف، وليست بجاحة الامساك بزمام الامور، فهذا نظام لم يعد قادرا على رؤية ما يغرق داخل مياهه الاقليمية، واصبح كل ركن فيه، بالكاد يحمي مجاله الجوي، فالاستاذ نظيف لا يعرف مكان غرق العبارة التي غرقت في المياه الاقليمية لدولة صديقة تدعى مصر، نظرا الى بعد المسافة بينها وبين مملكة «غارديناليا» القريبة من ارخبيل الكبار في محيط مدينة السادس من اكتوبر، وكذلك الاستاذ منصور اوبل شيفروليه ـ مصر وزير النقل والمواصلات في الحكومة التي ترفع علم بنما وتحكم مصر، انتقل الى ميناء سفاجا، بعد اكثر من نصف يوم على غرق العبارة نظرا الى عدم عثوره على جواز سفره ورفض السلطات السفاجية اعطاءه تأشيرة دخول الى اراضيها.

اننا لا ندين اشخاصا في حكومة بنما المصرية، فهم أضعف من تحمل اية مسؤولية، انهم مجرد موظفين وصلوا الى وظائفهم عن طريق اعلانات (مطلوب وزير.. يجيد اقناع المواطنين بمسؤولية حكومة بنما عن غرق مصر)، اي وزراء هؤلاء الذين ينتظرون ورود اسمائهم في كل تشكيل وزاري، كما كنا ننتظر اسماء الناجحين في الثانوية العامة التي كانت تبثها الاذاعة، والجملة الشهيرة، مدرسة المساعي الحميدة ـ او المشكورة ـ لم ينجح احد، ويبدأ بكاء الساقطين في الامتحان، ويحتار الحاصلون على خمسين بالمئة، فهم لن يدخلوا الجامعة، لكنهم الان يمكن ان يدخلوا الجامعة المفتوحة، والحكومة المفتوحة، التي لا تشترط المجموع، وتشترط فقط قدرتك على دفع مصروفاتها، ويفضل ان تكون صاحب معارض سيارات او شركات سياحية او طبية، ويا حبذا لو كانت شركة انتاج «مرقة دجاج» ستكون ساعتها وزير فاين.. فاين فودز.. حيث ستنجح الحكومة في اغراق الناس في الشورية، وتلسعهم بها لكي ينفخوا في الزبادي. اننا امام نظام لا يعرف سوى انه مستمر في الحكم، كيف؟ لا يهم، سواء بحرق الناس في القطارات والمسارح، او بإغراقهم في عبارات السلام.. سلام الشجعان. انه نظام يعمل كأن الشعب مات امس، وان وزراءه سيموتون غدا، وانه بفضل علم بنما سيعيش ابدا. عندما غرق الاحبة في هذه العبارة ـ صدقوني ـ لم يكن اي مسؤول في مصر يعلم اي شيء عنها، فهم مجرد تابعين او متابعين لما يحدث حولهم، وعند كل حادث او حديث تسمع النشيد الوطني: الرئيس يتابع او امر بمتابعة.. سواء تعلق الامر بقتل الناس في البحر الاحمر، او بالسلاح الاسرائيلي على الحدود مع غزة، او فيما يتعلق باي قضية تشغل العالم، ويشعرك تلفزيون السرايا الصفرا من ماسبيرو اننا في الجنة، ولا توجد اية مشاكل.

انه نظام (آلموت) وهي قلعة شهيرة، اتخذها الحسن بن الصباح في عام 1092 ميلادية، ليؤسس لمملكة الحشاشين، وكان قد احاط القلعة ـ التي يعني اسمها عش النسر ـ بالحدائق المملوءة بالجواري وجداول المياه، واستقدم شبابا، دربهم على الاخلاص له كزعيم للمذهب الاسماعيلي، ووعدهم بان يدخلهم الجنة إن هم ماتوا في سبيل تمكينه من حكم ايران والقضاء على اعداء الدين وفي مقدمتهم الوزير نظام الملك، وليؤكد وعده لهم بالجنة، اختار عددا منهم، ودس لهم بذور «القنب» التي يصنع منها الحشيش، وبعد ان يغيبوا عن الوعي، ينقلهم الى حدائقه، فيصحو الشبان وسط الجواري والخمر وانهار اللبن والعسل، ويستمتعون حتى الثمالة من الخمر والحشيش، ويعيدهم شيخ الجبل الحسن بن الصباح الى القلعة، مؤكدا لهم انهم كانوا في الجنة، وسط الحور العين، وسيعودون اليها إن اطاعوه، وينشر العائدون من جنة الحشاش، خبرها وسط اقرانهم فيزداد الشوق اليها، ويتعجلون الموت في سبيل شيخ الجبل حامل مفتاحها، وكان بن الصباح ـ كما في كل عصر ـ يستعين بشيوخ يفسرون الدين والقانون حسب هواه، وهم يتبادلون بينهم انه كافر مجنون، لكنهم كانوا يخشون الجيش المسلح الذي يطيعه وفدائييه الشبان الموعودين بالجنة.

ان اكبر مشكلة يعاني منها النظام الان، انه لم يعد قادر على سطلنا فقد أفقنا بعد ان ضاع الطريق، ولم تجد حكومتنا سوى اسم «بنما» لتحشره في كارثة العبارة، واكتفت بالحديث عن (علم) بنما من دون مخدراتها الشهيرة، ولا ادري هل هو نوع من (السطل) او (الاستسطال) تمارسه علينا الحكومة، عندما تصمم على الحديث عنا باعتبار اننا مصريون، انكم يا سادة رفعتم فوقنا علم بنما، حتى لا يمكن محاكمتكم في مصر على الجرائم التي ترتكبونها في حقها.

* كاتب من مصر
Mwahed39@yahoo.com

بدائل ليكون سلاح المقاطعة أكثر فاعلية

عبدالعزيز محمد الخاطر*

■ الاحتجاج والغضب الإسلامي الذى يجتاح الأرض له ما يبرره فلم يعد يملك المسلم غير دينه فالجسد الإسلامي كله عاهات وعلل الداخلية منها أكثر من الخارجية ولم يعد سالماً منه إلا دفعته المعنوية وهويته الدينية " لا اله ألا الله محمد رسول الله " فالمساس بهذه الهوية وتلك الدفعة مساس بأخر خطوط النفس الإسلامية هنا تكمن خطورة الموضوع التي قد لا يدركها الفرد الغربي بشكل واضح لكي يبعدها عن ما يسمي بحرية الرأي ضمن مشروعه الحضاري. هناك محوران أود الإشارة إليهما في هذا المقال المحور الأول : كيف استطاع الغرب التغلب على مثل هذه المشكلة لديه ؟ والمحور الثاني : لماذا لا يشكل سلاح المقاطعة عاملاً حاسماً بيد الأمة العربية أو الإسلامية ؟

فيما يتعلق بالمحور الأول استطاع الغرب أن يُنسى العالم بماضية الأسود وحروبه الطائفية والدينية من خلال تطوره في جميع المجالات وبناء حاضر يقوم على ذلك التطور ليصبح بالتالي ركيزة التقدم ومثالاً يحتذي لجميع الأمم الأخرى في حين أن حاضرنا المتخلف وعدم تطورنا جعل من ماضينا متحملاً للمس